صورة الإسلام فى نبوءة ميثوديوس المجهول

الدكتور
عبد العزيز رمضان

صورة الإسلام فى نبوءة ميثوديوس المجهول

كان الفتح الإسلامى لمصر والشام تحديا خطيرا للقوة العظمى فى القرن السابع الميلادى والممثلة فى الإمبراطورية البيزنطية، إذ أظهر عجزها عن الدفاع عن ولايتها الشرقية، فى الوقت الذى قلص من قوتها وحصرها داخل حدودها الضيقة لتظل بها طوال القرون الباقية من عمرها، وعلى المستوى الأيديولوجى خلق النجاح الإسلامى فى الشرق حالة من القنوط لدى البيزنطيين وأنصارهم من أهل البلاد المفتوحة، وتجسدت هذه الحالة فى ظهور نوع من الأدب ارتبط فى الأذهان بالأمل فى الخلاص من هذا السيد الآتى، وهو أدب الأبوكاليبس الذى نشأ للتعبير عن حلم بات من الصعب تحقيقه على أرض الواقع، مما دفع بكتّابه إلى نسج سيناريوهات تعبر عن رؤاهم المستقبلية لمصير العالم ونهاية الزمان، يجسدون فيها ويعبرون من خلالها عن حالة العجز التى أصابت القوة السياسية الحالية وأملهم فى حتمية خلاصهم بأداة ربانية مقدرة.

وأدب الأبوكاليبس أو أدب الرؤى والنبوءة قديم وليس وليد القرن السابع الميلادى، إذ ارتبط من قبل باليهود وفكرة ظهور مسيح يهودى من نسل داود يخلصهم من العبودية ونير المحتل، ويحقق لهم ما ادعوه دوما من أنهم شعب الله المختار باستعادة أمجادهم القديمة وإعادة بناء مملكة داود وسليمان على أرض الواقع، وهو ما لم يتحقق نتيجة ظهور مسيح أخروى بدلا من المسيح الدنيوى اليهودى، ومع ذلك ظل الأبوكاليبس المجسد

للحلم اليهودى فى الخلاص على يد المسيح المخلص قائما حتى العصر الحديث، وارتبط وتدعم بالفكر الصهيونى[1].

وفى القرن السابع أعيد تقديم أدب الأبوكاليبس بعد تطويره ليلائم الأوضاع الجديدة التى طرأت على العالم المسيحى، ولكنه فى الوقت نفسه ظل يمثل امتدادا للفكرة اليهودية عن "المخلص المنتظر"، ولكنه اختلف عن الأبوكاليبس اليهودى فى أمرين، أحدهما أن المخلص المنتظر هنا لم يعد ممثلا فى شخص مسيح من نسل داود، وإنما غدا شخصا يرتدى العباءة الملكية ويضع على رأسه تاج الملك، وتمثل الثانى فى اختلاف القوة التى ينتظر ويؤمل فى الخلاص منها، حيث استبدل البابليين والآشوريين ثم الرومان عند اليهود الآن بالمسلمين، القوة الفتية الجديدة التى بدأ ينظر إليها – من قبل البيزنطيين وأنصارهم – على أنها تشكل الخطر الحقيقى والدّاهم على المسيحية والعالم المسيحى بأسره، ومن ثمّ أصبح هذا النوع من الأدب يدور حول فكرة رئيسية ألا وهى ظهور ملك منتظر يخلص المسيحية وعالمها من خطر الإسلام وعالمه[2].

وطالما كان هذا النوع من الأدب القديم فى ثوبه الجديد موجها الآن وبدرجة رئيسية ضد الإسلام، وبما إنه كان أيضا نوع من الأدب التنبؤى الخيالى الذى يبعث الأمل إلى أفئدة الكارهين، فقد حرص كتّاب هذا الأدب على إضفاء نوع من النبرة التفاؤلية والتأكيد على الانتصار النهائى الحتمى للمسيحية، ولدعم نبوءاتهم ولتأكيدها فى الوقت ذاته عمدوا إلى الاستشهاد بفقرات من المزامير وأسفار الرؤيا فى العهدين القديم والجديد لإقناع قرائهم برؤاهم ولإضفاء قدر من المصداقية الدينية على أمور غيبية لم تتحقق على

---

1 عن أدب الأبوكاليبس اليهودى وارتباطه الوثيق بفكرة المسيح المخلص، انظر، منى ناظم، المسيح اليهودى ومفهوم السيادة الإسرائيلية، أبو ظبى، 1986، ص 108 وما بعدها.

2 ومع ذلك ظل هناك رباط قوى بين الأبوكاليبس اليهودى ومثيله فى القرن السابع الميلادى، إذ إن كلاهما عكس حالة الانكسار العسكرى والهزائم المتلاحقة، سواء التى منى بها بنو إسرائيل من سبى آشورى عام 722م، ثم بابلى عام 586م، إلى الشتات الكامل عام 70م على أيدى الرومان، أو الهزائم البيزنطية المتلاحقة على أيدى المسلمين إلى ضياع ولايتها الشرقية خاصة مصر والشام، فكما كان الأبوكاليبس اليهودى المرتبط بمفهوم المسيحانية (الخلاص) تعويضا لمشاعر النقص وحالة الدونية التى سقط فيها بنو إسرائيل2، كان أبوكاليبس القرن السابع وما تلاه تعبيرا عن حالة الفشل والعجز وتعويضا لمشاعر الإحباط واليأس التى ملأت البيزنطيين وأتباعهم فى الشرق.

أرض الواقع ولا توجد بوادر لتحققها فى القريب العاجل، ولهذا الدافع أيضا عمدوا إلى صياغة رؤاهم الجديدة بمزجها بسلسلة من الرؤى المستوحاة من التوراة والإنجيل، كالحرب المقبلة مع القبائل القادمة من الشمال والمسماة يأجوج ومأجوج وظهور المسيخ الدجال والمجيء الثانى للمسيح.

ويبدو أن هذا النوع من الأدب لم يكن فقط لبث حلم الانتصار على الإسلام بغرض رفع معنويات المكلوبين من رجال الدين والرهبان والمسيحيين فقط، بل كانت له مقاصد أخرى بعيدة المدى، أولها الإساءة للمسلمين وتشويه صورة الإسلام وحركة الفتوحات الإسلامية ووصفها بالوحشية والدموية وأنها تمت بحد السيف، والثانى هو نتيجة منطقية للأول وهو أن يظل المسيحيون على معتقدهم خاصة بعد دخول عدد كبير من سكان البلاد المفتوحة فى الإسلام، والتأكيد على أن أولئك باتوا فى عداد الكفار، وبديهى أن يكون ذلك أمرا طبيعيا فى كتابات يرجح أن يكون مؤلفيها من رجال الدين ممن اتصفوا بالتعصب[1].

وقد دفع هذا النوع من الأدب عددا من الباحثين الغربيين المحدثين إلى الاتكال عليه للادعاء بأن الفتوحات الإسلامية تمت بحد السيف، قهرا وجبرا على سكان البلاد المفتوحة [2]، وهو أمر بطبيعة الحال مناقض للواقع، فهذه الكتابات ليست إلا دليلا على نظرة الكراهية من جانب الإمبراطورية البيزنطية ومؤيديها من أهل البلاد المفتوحة

---

1 والمطالع لهذه الكتابات يلاحظ أيضا من الوهلة الأولى أن هناك تمجيدا غير مألوف لبيزنطة وحكامها، رغم أن الواقع يؤكد أن رجال الدين الشرقيين بل والكنائس الشرقية عامة لم تلق من المهانة والعنت مثلما لقيت على أيدى حكام بيزنطة، وربما يرجع ذلك إلى أن هؤلاء كتبوا باسم بيزنطة على اعتبار أنها القوة الأكثر تضررا من الإسلام ولأنها الوحيدة فى ذلك الحين القادرة على مواجهته، أو لأن هؤلاء – وهو الأمر الأرجح فى اعتقادى – كانوا عملاء لبيزنطة وحكامها.

2 Constantelos , D.J., "The Moslem Conquests of the Near East as revealed in the Greek Sources of the Seventh and the Eighth Centuries" , *Byzantion* 42(1972),pp.323-357 ; Moorhead , J.,"The Monophysite Response to the Arab Invasions" , *Byzantion* 51(1981), pp.579-591.

وتستند هذه الأبحاث على مثل هذه النصوص للتأكيد على أن السريان والأقباط قاوموا الفتح العربى الإسلامى وانحازوا إلى الجانب البيزنطى فى مواجهته، وبالتالى تشكك تماما فى فرضية قبول أهالى البلاد المفتوحة وترحيبهم بالفتح الإسلامى.

للإسلام والمسلمين باعتبارهم كانوا أصحاب المصلحة الحقيقية فى تخليها وهى كارهة عن مكانتها كقوة عظمى، كما أنها تعكس الأصول العدائية للإسلام والتى استمر تأثيرها طوال فترة العصور الوسطى، وتركت صداها القوى على بعض النبوءات التى لا تزال تروج فى الغرب الأوروبى، موضوعها نهاية الإسلام وغايتها بث وتقوية روح العداء له ولمعتنقيه[1].

وهذا البحث مجرد محاولة للاقتراب وإلقاء الضوء على أول نماذج هذا النوع من الأدب الموجه ضد الإسلام، عناصره المكونة، والنظرة العدائية التى احتواها، وهو النبوءة المسماة برؤيا ميثوديوس، والتى كتبت فى شمال سوريا عام 691-692م على يد راهب سريانى مجهول، وقد ألف النص الأصلى بالسريانية[1]، ثم سرعان ما ترجم إلى اليونانية [2]، ومنها إلى

---

1 لمزيد من التفاصيل عن أدب أبوكاليبس القرن السابع، انظر،

Hoyland , R.G., *Seeing Islam as others saw it: A Survey and Evaluation of Christian , Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam* , Princeton , New Jersey , 1997 , 257-335.

حيث عرضت هذه الدراسة لموجز عن النبوءات السريانية والقبطية واليونانية التى تنبأت بزوال السيادة الإسلامية، ومن بين هذه النبوءات السريانية: نبوءة إفرايم المجهول التى تحمل عنوان "عظة القديس إفرايم عن نهاية العالم وخروج يأجوج ومأجوج والمسيخ الدجال"، ونبوءة ميثوديوس المجهول، ونبوءة يوحنا الرهاوى وميثوديوس الرهاوى المعنونة "انجيل الرسل الاثنى عشر"، ونبوءة الراهب باحيرا، ونبوءة عزرا المجهول المعنونة " بشأن نهاية الإسماعيليين"، عن هذه النبوءات انظر،

Hoyland , *Seeing Islam* , pp.260-278.

وعن أثر نبوءة ميثوديوس على النبوءات التالية فى العصور الوسطى انظر،

Alexander , P., " Medieval Apocalypses as Historical Sources" , *American Historical Review* 73/4(April 1968), pp.997-1018 ; Idem , "Byzantium and the Migration of Literary Works and Motifs: The Legend of the Last Roman Emperor" , *Medievalia et Humanistica* 2(1971), pp.47-68 ; Reeves , M., "Joachim of Fiore, Dante and the Prophecy of a Last Roman Emperor" , *ΚΑΘΗΓΗΤΡΙΑ: Essays presented to Joan Hussey for her 80th birthday* , Porphyrogenitus , 1988 , pp.385-394.

2 وفقا لأحدث ناشر للنص السريانى الأصلى G.J. Reinink أن هذا النص كتب فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان خلال الفترة 691-692م، وعلى أساس تحليله الدقيق للنص، يقترح رينينك أن العمل كتب فى محيط أرثوذكسى سريانى، فى المنطقة الحدودية بين بيزنطة وفارس حول مدينة سنجار Sinjār، واستنتج بأنه ربما وضع كرد فعل للتطورات السياسية والاجتماعية الخطيرة فى المنطقة خلال تلك الفترة.

اللاتينية[1]، وقدر له على حد قول سيريل مانجو Cyril Mango أن "يترك أثرا عميقا على الفكر الأخروى للعصور الوسطى، إذا استمر تأثيره حتى القرن التاسع عشر، رغم أنه ألف فى جزء ناءٍ من العالم كرد فعل لمأزق كنيسة اليعاقبة فى ظل السيادة الإسلامية"[2].

وتتألف نبوءة ميثوديوس من أربعة عشر فصلاً، يمكن تصنيفهم فى أربعة أقسام رئيسية[3]:- الأول عبارة عن مقدمة مستوحاة من العهد القديم تتناول تاريخ العالم من بداية الخليقة، ويتحدث فيها الكاتب عن خلق آدم وحواء وقتل قابيل لهابيل[4]، وقصة نوح وأبنائه[5]، ثم يصل إلى قصة إبراهيم وزواجه من سارة وهاجر المصرية[6]، وقد حاول

G. J. Reinink, "Ps.-Methodius: a Concept of History in Response to the Rise of Islam," in A. Cameron & L. Conrad (eds.), *The Byzantine and Early Islamic Near East I; Problems in the Literary Source Material* (Studies in Late Antiquity and Early Islam, I; Princeton: The Darwin Press, 1992), pp. 149-187.

انظر نشر النص السريانى الأصلى،

Martinez , F.J., *Eastern Christian Apocalyptic in the early Muslim Period: Pseudo Methodius and Pseudo Athanassius* , Ph.D. dissertation: Catholic University of America , 1985; Suermann , H., *Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7.jahrhunderts*, Frankfurt am Main , 1985.

وقد اعتمد الباحث على الترجمة الألمانية لهذا النص:-

Reinink , G.J., *Die syrische Apokalypse des Pseudo-Methodius* , *Corpus Scriptorum Cristianorum Orientalium*: vol. 541, Louvain: Peeters, 1993.

1 انظر نشر النص اللاتينى،

Sackur , E., *Sibyllinische Texte und Forschungen. Pseudo Methodius , Adso , und die tiburtinische Sibylle* , Halle , 1898.

وقد رجع الباحث إلى هذا النص بجانب اعتماده الأساسى على الترجمة الألمانية للنص السريانى.
وانظر أحدث نشر للنصين اليونانى واللاتينى،

Aerts , W.J., & Kortekaas , G.A.A., *Die Apokalypse des Pseudo-Methodius. Die ältesten griechischen und lateinischen Übersetzungen* , *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium* 569 , Leuven , 1998.

2 Mango , C., *Byzantium: The Empire of New Rome* , New York , 1980 , p.206.

3 هذا التصنيف من وضع الباحث ولم يرد فى النص الأصلى للنبوءة

4 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , pp.1-4.

5 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , pp.4-10.

6 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , pp.11-13.

الكاتب فى هذا القسم تقديم تفسير لتباين الأجناس والسلالات بعد طوفان نوح وانسياح أبنائه فى مختلف جهات الأرض، والأهم من ذلك أن يقيم تمييزا بين العرب وبنى إسرائيل، حيث أطلق على الأولين اسم "بنى إسماعيل" لكونهم من نسل إسماعيل ابن هاجر المصرية من إبراهيم، وعلى الآخرين "بنى إسرائيل" لكونهم من نسل اسحق ابن سارة من إبراهيم.

أما القسم الثانى؛ والذى يمكن أن نطلق عليه " أسطورة الإسكندر"، فيتكون من مقدمة تاريخية من العصر اليونانى المقدونى مصبوغة بمسحة أسطورية، فيها تم المزج بين شخصيات وأحداث تاريخية حقيقية وأخرى مستوحاة من الخيال، حاول من خلالها إثبات قضية مثيرة للدهشة وهى أن الإمبراطورية البيزنطية ذات أصل حبشى، وكان عليه بعدئذٍ أن يبرر كيف كان ذلك، والأهم ما هو دافعه إلى ذلك، وفى الوقت الذى قدم فيه تبريرا أسطوريا بنسج قصة أرجع بدايتها إلى عهد فيليب المقدونى، لم يعط تفسيرا مباشرا عن دافعه للربط بين الحبشة وبيزنطة، وإن كنا نستطيع استنتاج ذلك من سياق نبوءته.

وبالنسبة إلى أصل بيزنطة الحبشى، برره الكاتب بزواج فيليب المقدونى من كوسيث Chuseth ابنة ملك الحبشة المدعو فول Phol والتى عادت بعد وفاة فيليب إلى أرض الوطن، ثم زوجت من بيزاس Byzas ملك بيزنطة، وأنجبا ابنة واحدة سميت بيزنطيا Byzantia، زوجت من ملك روما رومولوس ارخيلاوس Romulus Archelaos، الذى تلقى المدينة كهدية زفاف، وأنجب رومولوس وبيزنطيا ثلاثة ذكور، ارخيلاوس الذى حكم روما، واوربانوس Urbanus الذى حكم بيزنطة، وكلاوديوس Claudius الذى حكم الإسكندرية، وهكذا أثبت الكاتب أن إمبراطورية الرومان والإغريق ذات أصل حبشى[1].

أما عن الدافع من الربط بين بيزنطة والأصل الحبشى، فيمكن استبيانه من المقدمة التى بدأ بها الكاتب قصته، والتى جاء فيها:- "أنصت الآن كيف انصهرت معا هذه إنهم الإمبراطوريات الأربع، الأثيوبية مع المقدونية، واليونانية مع الرومانية، إنهم: أربع رياح هجمت على البحر الكبير [2]، ومن استشهاده بعبارة من المزمور الثامن

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.26-29 ; Sackur., *Sibyllinische Texte* , pp. 72—3.
2. Reinink , *Die syrische Apokalypse*, p.19; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 72.

والستين: وتبسط الحبشة يديها مسرعة إعرابا عن خضوعها للرب[1]، لقد رأى كاتبنا أن الخلاص يجب أن يتم على يد قوة ورد بها ذكر فى الكتاب المقدس لما قد يتركه ذلك من أثر فعال على نبوءته، ولما كانت بيزنطة غير واردة فيه، وهى فى الوقت نفسه القوة الوحيدة المرجو منها التدخل وتغيير الأوضاع، فقد أراد أن يجعلها وريثة لقوة أخرى لها هذا الذكر، وكانت الحبشة بالنسبة له هى القوة المؤهلة لتأدية هذا الدور، خاصة وأن ملكها وقتذاك كان الحاكم المونوفزيتى الوحيد المستقل عن السيادة الإسلامية، وربما – كما يقترح مانجو Mango[2]– كان ذلك دافعا للبعض فى تعليق آمالهم عليه، ولما كانت إمكانية تدخل الحبشة فى سوريا غير واردة، وبدلا من الانتظار، جاهد كاتبنا لجعل بيزنطة مرادفة للحبشة، ليثبت أن إمبراطورية الرومان والإغريق ذات أصل حبشى، وأن روما - الآن روما الجديدة باعتبارها وريثة للإغريق والرومان معا- هى الإمبراطورية التى بوضوح ستبسط يديها خضوعا للرب، وهو الأمر الذى أكده كاتبنا نفسه فى الفقرة الخاتمة لنبوءته والتى جاء فيها:- " إن نبوءة داود – الخاصة ببسط الحبشة يديها- قد تحققت، ذلك أن أولئك الرجال الذين بسطوا أيديهم إلى الرب من نسل أبناء كوسيث Chuseth ابنة فول Phol ملك الحبشة "[3].

وثمة ملاحظة أخرى على هذه القصة، سواء أوردها الكاتب عن قصد أو بصورة تلقائية باعتبارها غدت وقتذاك حقيقة واقعة، انسجم فيها مع نظرية البيزنطيين السياسية والثقافية باعتبارهم الورثة الشرعيين للإغريق والرومان، خاصة بعد ضياع النصف الغربى من الإمبراطورية الرومانية منذ أكثر من قرنين فى قبضة القبائل الجرمانية، غير أن الجديد فى قصته هو أن البيزنطيين لم يعودوا فقط إغريقا بحكم أن إمبراطوريتهم نشأت وترعرعت على أرض يونانية غرست فيها جذور ثقافتهم وحضارتهم، ورومانا بحكم

---

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse*, pp.30-31; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 94 المزامير، 68:31.

2 Mango , *Byzantium* , p.206.

3 Reinink , *Die syrische Apokalypse*, p.31-32 ,73-74 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 94.

أنهم ورثوا السلطة الإمبراطورية الرومانية من الوجهة السياسية [1]، بل أراد الكاتب كذلك أن يؤكد على أن البيزنطيين هم الورثة الشرعيين للإغريق والرومان معا بحكم انصهار الإمبراطوريتين فى رباط زواج جمع بين بيزنطيا ابنة بيزاس ملك بيزنطة وروموليوس ملك روما، ثم جاء نسلهما ليرث العرقين والإمبراطوريتين، وهى مقدمة ربما أراد بها الكاتب الاستدلال على أن الإمبراطور المنتظر، اليونانى – الرومانى كما نعته الكاتب، هو إمبراطور بيزنطة.

وبعد هذه المقدمة وهذا التفسير، يواصل الكاتب سرده لبعض الوقائع التاريخية المخلوطة بوحى من الخيال، عن الإسكندر الأكبر بن فيليب من زوجته الحبشية كوسيث، "الذى نصب ملكا على الإغريق. فشيد الإسكندرية العظمى وحكم تسعة عشر عاما، ذهب أثناءها إلى الشرق وقتل داريوس ملك الميديين، وغدا حاكما على مدن وأقاليم كثيرة، لقد دك الأرض وذهب بعيدا عبر البحر حتى وصل إلى ما يطلق عليه منطقة مغيب الشمس، حيثما رأى السلالات النجسة ذات الهيئة الكريهة... فأعطى أوامره وجمعهم جميعا بأطفالهم ونسائهم وكل قراهم، وقادهم بعيدا عن الشرق ليسجنهم خلف الأسوار"[2]، والكاتب هنا يقصد قبائل يأجوج ومأجوج الذين سيظهرون ثانية فى آخر النبوءة ليؤدوا دورهم فى أحداث نهاية الزمان.

ويبدأ الكاتب القسم الثالث من نبوءته، والذى يدور حول ما أسماه " **نكبة الإسلام**"، ويصف فيه ما زعمه "الدمار" الذى أحدثه الفتح الإسلامى، وراح يوازن بين آلام – بؤس وشقاء- عصره و"الارتداد" الذى حدث بولس عنه قبلا [3]، ولما كان هذا الارتداد عند بولس قرين ظهور "**الإنسان المتمرد، ابن الهلاك**" – المسيخ الدجال - الذى سيتبعه

---

1 عن رؤية البيزنطيين لهويتهم اليونانية والرومانية، انظر،
عبد العزيز رمضان، " البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية "، بحث منشور بالمجلة التاريخية المصرية، مج43، 2005، ص55-80.

2 Reinink , *Die syrische Apokalypse*, pp.21-26; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 73-74.

3 Reinink , *Die syrische Apokalypse*, pp.34-36; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 79-80.

عدد كبير من الهالكين، بينما يتمسك آخرون بتعاليم المسيح فيفوزوا بملكوت السماوات [1] فإن موازنة الكاتب هنا يقصد بها الإساءة للإسلام ونبيه، وإثارة مناخ من التشكيك فيه، ربما قصد به إثارة الرهبة فى نفوس معتنقيه الجدد من المسيحيين، وتبشير رافضيه بالثواب الإلهى، لزحزحة الأولين وتعضيد الآخرين، ولا شك فى أن ذلك موقف طبيعى من رجل كره الإسلام والمسلمين وتمنى زوال سيادتهم، رجل أفزعه دخول عدد كبير من أهل بلاده إلى الدين الجديد الوافد[2].

وانسجاما مع هذا الموقف العدائى راح الكاتب يبالغ إلى حد التطرف فى وصف ما أسماه "نكبة" فيقول:- "فى أواخر الألف السابعة[3] ستنمحى الإمبراطورية الفارسية، وفى هذه الألف السابعة ستشرع ذرية إسماعيل فى الزحف بعيدا عن صحراء يثرب Ethribus، وسيتقدمون حتى تلتئم حشودهم عند Gabaoth الكبرى، وهناك ستتحقق مقولة حزقيال Ezekiel النبى: **أما أنت يا ابن آدم، فهذا ما سيعلنه السيد الرب: قل لكل أصناف الطيور ولجميع وحوش البرية اجتمعى وتعالى، احتشدى من كل جهة حول ذبيحتى التى أعدها لك... تأكلين لحم الجبابرة وترتوين من دماء رؤساء الأرض**[4]، على هذا النحو سيمنح المسيح لأبناء إسماعيل القوة والسلطة لغزو أراضى المسيحيين، لا لحبه لهم، وإنما بسبب

---

1 الرسالة الثانية إلى مؤمنى سالونيكى، 2؛ الرسالة الثانية إلى مؤمنى كورنثوس، 11: 7-11.

2 انظر ما كتبه على الجانب المصرى الأسقف يوحنا النقيوسى عقب الفتح الإسلامى لمصر "لكن رحمة الرب تلحق الخسران بالذين يحزوننا، ويجعل حبه للقوم الذين يتغلبون على خطايانا، ويبطل المعاذير الشريرة لمن يسيئون إلينا، الذين لا يريدون أن يملك عليهم ملك الملوك وسيد السادة يسوع إلهنا بحق، وهؤلاء العبيد الشريرين يهلكهم بالشر، كما يقول الإنجيل المقدس: **أعدائى الذين لم يريدوا أن أملك عليهم أحضرهم إلىّ**، والآن، كثير من المصريين، الذين كانوا مسيحيين كذبا، أنكروا العقيدة المقدسة الأرثوذكسية والمعمودية الحية، وساروا فى عقيدة الإسلام أعداء الرب وقبلوا تعاليم محمد، وأخطأوا مع هؤلاء الوثنيين، وأخذوا فى أيديهم السلاح وحاربوا المسيحيين".
يوحنا النقيوسى، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: رؤية قبطية للفتح الإسلامى، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة 2000، ص 222.

3 تقسم النبوءة تاريخ العالم إلى سبعة آلاف سنة، وتجعل الفتح الإسلامى فى الألف السابعة والأخيرة.

4 حزقيال 39: 17-19.

الخطايا والشرور التى اقترفتها أيدى المسيحيين[1]...، فلهذا السبب سيقودهم الرب إلى

---

1 من الملاحظ أن المؤرخين السريان اللاحقين نظروا أيضا إلى الفتح الإسلامى على أنه أداة عقاب إلهية للمسيحيين، فوفقا لإحدى الدراسات المتخصصة التى عالجت رؤية المصادر السريانية للفتح الإسلامى، رأى المؤرخون السريان فى الإسلام عقابا للنصارى نتيجة خلافاتهم الدينية واضطهاد الروم والفرس لأتباع الكنيسة السريانية التى خالفت كنائس الدولتين، فيلاحظ أن نصوص كل من المنافزة والنساطرة والخلقدونيين قدمت الرؤية الخاصة لكل طائفة تجاه الفتح العربى، ففى الوقت الذى يلاحظ فى النصوص المونوفزتية اتجاها عاما نحو اعتبار الفتح العربى للشام عقابا إلهيا أنزل بالبيزنطيين الخلقدونيين نتيجة اضطهادهم للمنافزة، راح النساطرة يفسرونه كعقاب إلهى على الهرطقتين الخلقدونية والمونوفزيتية، بينما رآه الخلقدونيون الديوثوليتيون عقابا إلهيا بسبب سياسة قنسطانز الثانى الموالية للخلقدونيين المونوثيليتيين، ومع إحياء اللاهوت المونوثيليتى فى عهد قسطنطين الرابع راح المؤلف المونوثيليتى لسيرة مكسيموس السريانية يفسر الانتصارات الإسلامية فى شمال إفريقيا بأنه عقاب إلهى أنزل على كل مكان بسبب بدعة ماكسيموس الديوثوليتية، ورغم اختلاف كل طائفة فى تحديد هوية المقصود بالعقاب الإلهى، إلا أنها جميعا اتفقت على نقطة واحدة، ألا وهى اعتبار الفتح العربى عقاب أنزله الرب للانتقام من الطائفة المعادية للأخرى، وأن نهضة العرب ليست إلا أمرا ربانيا مقدرا لتحقيق هذا الانتقام، وهو الأمر الذى يذكرنا بميثوديوس المجهول الذى عد الفتح العربى عقابا إلهيا، ولكنه اختلف عن التفسيرات السابقة فى أنه جعل المسيحيين أجمعين هدفا للعقاب بسبب آثامهم وخطاياهم، خاصة الجسدية منها، ولاشك فى أن هذه التفسيرات رغم اختلافها فى تحديد هدف العقاب، إلا أنها جميعا اتفقت على الإساءة إلى الإسلام والعرب المسلمين. عن نصوص هذه الطوائف انظر،

Brock , S., "Syriac Views of Emergent Islam" , G.H.A.Juynboll , ed., *Studies on the First Century of Islamic Society* , Carbondale & Edwardsville , 1982 , repr. Idem , *Syriac Perspectives on Late Antiquity* , London , 1984 , no.viii , pp.10-12.

ووفقا لأحدث دراسة متخصصة باللغة العربية عالجت هذا الموضوع، رأى كاتبها أن الخلافات اللاهوتية لم تكن هى العامل الوحيد فى صياغة رؤية السريان للفتح بوصفه عقابا إلهيا، بل أرجعها كذلك إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت المنطقة بسبب الحروب البيزنطية الفارسية، ومن بين النصوص السريانية التى وردت فى هذه الدراسة، رواية الجاثليق إيشويب فى منتصف القرن السابع:- " إن العرب الهاجريين لم يساعدوا أتباع الطبيعة الواحدة، بل إن هزيمتهم بسبب أخطائهم"، ورواية سليمان البصرى مؤلف "كتاب النحلة" فى القرن الثالث عشر:- "وخرج أبناء إسماعيل من صحراء يثرب واجتمعوا فى ربوة عالية ومن هناك خربوا ثروات مملكة اليونان، وخرب إسماعيل قضيب الصحراء مملكتى العبريين والفرس، ذلك الذى أرسل بحمية على كل الأرض وعلى البشر وعلى البهائم والأشجار، هذا عقاب قاس، ليس لأن الله أحبهم ووهبهم العلو على ممالك المسيحيين، بل من أجل الظلم والإثم الذى اقترفه المسيحيون"، ومن الملاحظ أن العبارة الأخيرة استخدمت تقريبا نفس التعبيرات التى استخدمها ميثوديوس فى تأكيده على أن عقاب الرب للمسيحيين ليس لحبه للعرب المسلمين وإنما بسبب آثام المسيحيين، وهنا تذهب الدراسة المشار إليها سابقا إلى أن المؤرخين السريان ربما تأثروا فى رؤيتهم هذه بتفسيرهم لإحدى فقرات العهد القديم

الوقوع فى أيدى البرابرة والتى عليها سيغرقون فى النجاسة ونتانة الدنس، ستدنس نساؤهم بفاحشة البرابرة، سيقيم أبناء إسماعيل القرعة لقتل أبنائهم وبناتهم.

ستخضع أراضى الفرس للدمار والتخريب، وينقاد سكانها نحو العبودية والموت، سيهاجمون أيضا أرمينيا وأولئك الذين يقطنون هناك سيقعون فى الأسر بحد السيف.... ستتقوض أرض سوريا وتغدو خالية؛ أولئك الذين يسكنوها سيهلكون ويفنون بالسيف....، ستكون مصر والشرق وسوريا تحت نير العبودية ويرزحون فيها بمحنة

بأن سيطرة المسلمين على المسيحيين هو عقاب إلهى مقرر سلفا ورد فى الإصحاح السادس عشر بسفر التكوين، حيث يدور حوار بين ملاك الرب وهاجر:- "فوجدها ملاك الرب بالقرب من عين الماء فى الطريق المؤدية إلى شور(بئر زمزم)، فقال: يا هاجر جارية سارة من أين جئت؟ والى أين تذهبين؟، فأجابت: إننى هاربة من وجه سيدتى سارة، فقال لها ملاك الرب: عودى إلى مولاتك واخضعى لها، وقال لها ملاك الرب: لأكثرن نسلك فلا يعود يحصى، وأضاف ملاك الرب: هو ذا أنتى حامل وستلدين ابنا تدعينه إسماعيل (ومعناه الله يسمع)، لأن الرب قد سمع صوت شقائك، ويكون إنسانا وحشيا يعادى الجميع والجميع يعادونه، ويعيش مستوحشا متحديا كل إخوته"، لمزيد من التفاصيل، انظر،

صلاح عبد العزيز محجوب إدريس، "ظهور الإسلام وانتشاره من خلال مصادر التاريخ السريانية المسيحية"، المؤرخ المصرى، العدد27، يناير 2004م، ص 47-48، 49-50.

والجدير بالذكر أن هذه الدراسة رغم اعتمادها على عدد من المصادر التاريخية السريانية، إلا أنها لم تشر قط إلى مؤلف ميثوديوس المجهول.

ومائل فكرة العقاب الإلهى عند ميثوديوس بما كتبه الأسقف القبطى يوحنا النقيوسى عقب الفتح الإسلامى لمصر: "كان كل الناس يقولون: هذا النفى وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين..، وهلك الروم لهذا السبب، وسادِ المسلمون مصر".

يوحنا النقيوسى، تاريخ مصر، ص220.

"تضمن –هذا الكتاب– الأسرار الإلهية والعجائب العالية التى أصابت منكرى الإيمان فى وقت تزلزلت الأرض بسبب إنكاره، وهلكت نيقية المدينة العظيمة، وسقطت النار من السماء، وفى وقت أظلمت الشمس من ساعات الصباح حتى المساء، وفى وقت ارتفعت الأنهار وأغرقت قرى كثيرة، وفى وقت تهدمت البيوت، وهلك ناس كثيرون وسقطوا فى عمق الأرض، وهذا كله كان بسبب أنهم قسموا المسيح إلى طبيعتين، وجعله بعضهم مخلوقا، وزال تاج المملكة عن ملوك الروم وتسلط عليهم الإسماعيليون، لأنهم لم يسيروا بالإيمان الحق بسيدنا يسوع المسيح، وقسموا من لا ينقسم".

يوحنا النقيوسى، تاريخ مصر، ص223.

وفكرة العقاب الإلهى عبر عنها أيضا صفرونيوس بطريرك بيت المقدس زمن الفتح الإسلامى، عندما اعتبره عقابا إلهيا نتيجة لخطايا المسيحيين الأخلاقية.

Constantelos , *Moslem Conquests* , p.330.

عظيمة، إنهم سيقيدون دون رحمة، سينهب الذهب والفضة، سيكون سكان مصر وسوريا تحت القهر والاضطهاد، ستكتظ أرض الميعاد برجال من الرياح الرابعة تحت السماء"[1].

ومن الملاحظ أن الكاتب افتتح من قبل " أسطورة الإسكندر" بفقرة وردت فى رؤيا لدانيال، حلم فيها " **بأربع رياح تهاجم البحر الكبير**"، ثم يختتم حديثه فى القسم الثالث "نكبة الإسلام" بنفس المصطلح الدانيالى، عندما تحدث عن اكتظاظ أرض الميعاد برجال من الرياح الرابعة، وهى إشارة صريحة للمسلمين، ومعنى ذلك أن الكاتب أراد أن يطوع رؤيا دانيال الرمزية الواردة فى العهد القديم لخدمة غرضه الأساسى فى نبوءته، فالرياح الأربع التى هاجمت البحر فى رؤيا دانيال أعقبها خروج أربعة حيوانات عظيمة على التوالى، كان آخرهم أشدهم قوة، سحق الثلاثة الآخرين وجردها من سلطانها، ولكنها وهبت البقاء على قيد الحياة إلى حين [2]، وقد فسر هذا الحلم بأن "**هذه الحيوانات الأربعة العظيمة هى أربعة ملوك يظهرون على الأرض....، وأن الحيوان الرابع هو رمز للمملكة الرابعة على الأرض، وهى تختلف عن سائر الممالك لأنها تستولى على كل الأرض وتخضعها وتسحقها**"، ويأتى المسيح ويعقد مجلس القضاء " **فيجرد-الملك الرابع- من سلطانه فيدمر ويفنى إلى المنتهى، وتوهب المملكة والسلطان وعظمة الممالك القائمة تحت كل السماء إلى شعب قديسى العلى**"[3].

هكذا استخدم الكاتب رؤيا دانيال ليوحى لمسيحى عصره بأنها تحققت، وأن الوحش الرابع الذى سحق سلطان الثلاثة وحوش الأخرى، هو ملك الإسلام فى مواجهة الإمبراطوريات الأثيوبية والمقدونية اليونانية والرومانية، وطالما أن الجزء الأول من الرؤيا قد تحقق، فلا شك فى أن تحققها كلها أمرا مقدرا، ويبدو أن لجوءه إلى رؤيا دانيال يؤكد ما ذهبنا إليه قبلا من رغبة أكيدة وقوية لدى الكاتب لإضفاء هالة من القداسة وبالتالى المصداقية الدينية على نبوءته، وبالتالى يستطيع أن يصبو إلى هدفه الأساسى وهو محاربة الإسلام فى شخص معتنقيه الجدد من المسيحيين وتعضيد المتمسكين بالمسيحية، كما أنه يعكس محاولة للتخفيف من الشعور بالإحباط والفشل، خاصة فى ظل عجز السلطة

---

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse*, p.40-47; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 81-83.

2.12 -1 :7 دانيال،

3.27-15 :7 دانيال،

السياسية البيزنطية، وبث الأمل فى نفوس أقرانه من الكارهين للسيادة الإسلامية سواء من رجال الدين أو من مواطنى بلاده.

وإذا كان الكاتب قد صاغ نبوءته فى قالب دانيالى، فإنه خطى لأبعد من ذلك لإضفاء المصداقية عليها، وهو الأمر الذى نلاحظه فى القسم الثالث، حيث استخدم فيها الأفعال فى صيغة المستقبل، وكأنه أراد أن يوحى لمعاصريه بأن هذه النبوءة من زمن ماض، وأنها إذا كانت قد تنبأت بسيادة بنى إسماعيل، وهو ما تحقق بالفعل وزأوه رؤية العين، فستكون أكثر تأثيرا عليهم بشأن الجزء الذى لم يتحقق والخاص بأن تدمير الإسلام فى سبيله إلى التحقيق مستقبلا، وليس من المعروف إلى أى حد أدرك المعاصرون قدم أو معاصرة هذه النبوءة.

وفى الوقت الذى صاغ الكاتب القسم الثالث فى قالب دانيالى، فإنه فى القسم الرابع طور نبوءته، وأدخل عليها عنصرا جديدا لم يرد فى رؤيا دانيال، فالمخلص هنا لم يعد المسيح نفسه، وإنما غدا إمبراطور بيزنطة "ملك الإغريق" أو "إمبراطور العالم الأخير"، ولاشك فى أن هذا التطوير يتواءم مع عظم الهزيمة والفشل الذى حل بالإمبراطورية البيزنطية فى الشرق، وما أصاب هيبتها العالمية من زعزعة شديدة، وكرد فعل سريع ومباشر للهزيمة أراد الكاتب أن يكون المنتقم من نسل أباطرة هذه الإمبراطورية الجريحة، ربما لإعادة جزء من الهيبة التى فقدت فى نظر مسيحيى الشرق، أو للتأكيد على أن الانتقام من بنى إسماعيل يجب ألا يغادر إمبراطور بيزنطة الذى تجرع مرارة كأس الهزيمة فى الشرق على يد المسلمين، يقول الكاتب:- "وبعد تلك الكوارث والضربات لبنى إسماعيل[1]، وعند نهاية

---

1 من الجدير بالذكر أن الكاتب استخدم فى كثير من المواضع مسمى "الحمار الوحشى الصحراوى" ملازما لاسم إسماعيل، ولاشك فى أنه تأثر فى استخدامه هذا بالنص السريانى للعهدين القديم والجديد، حيث جاء ما نصه: "وأنه يكون إنسانا حمارا يده على الكل ويد الكل عليه، ويسكن أمام كل إخوته"، وهى الفقرة التى درسها حديثا الدكتور صلاح محجوب بالمقارنة مع النص العربى: "وأنه يكون إنسانا وحشيا، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن"، وخلص إلى أن هذا المسمى لوصف إسماعيل وبنيه بالتوحش جاء كإشارة تنبوئية وردت فى العهد القديم عن صراع سيحدث فى المستقبل بين إسماعيل وبين إخوته، وقرن بين هذه الفقرة وفقرات أخرى تشير إلى اصطفاء الرب ووعده الأبدى لإسحق ونسله وتفضيلهم على نسل إسماعيل، وكيف أن بنيه يمثلون العقاب الإلهى المستقبلى للمسيحيين، وعلى ذلك يمكن اعتبار هذا الوصف وما يحتويه من دلالات وخلفيات مرتبطة بالعهد القديم جزءا من خطة عامة للكاتب فى صياغة نبوءته

هذا الأسبوع[1]، وقتها سيكون الناس مستسلمين لخطر العقاب، دون أمل فى الخلاص من عبوديتهم الثقيلة، سيكونون مضطهدين مقهورين يعانون الآلام والجوع والظمأ، فى الوقت الذى سينعم أولئك البرابرة الطغاة بالطعام والشراب والراحة، سيتباهون بنصرهم، وكيف أنهم دمروا فارس وأرمينيا وقيليقية وايزوريا وقبادوقيا وإفريقيا وصقلية وهيلاس والأجزاء المأهولة بالسكان من بلد الرومان وكافة جزر البحر، وسيرتدون كالعرسان وسيتزينون مثل العرائس، ويتطاولون بقولهم "ليس للمسيحيين مخلص"، عندئذٍ ستنهض ضدهم فجأة أوجاع المحن والبلايا مثل المرأة فى المخاض، سيخرج ملك الإغريق ضدهم بغضب عظيم، ينهض وكأنه يستيقظ من سبات المخمور كذلك الذى اعتقد الرجال أنه ميت وعديم القيمة، سيتقدم ضدهم من البحر الأثيوبى (البحر الأحمر) وسيرسل السيف والدمار إلى صحراء يثرب Ethribus موطن أجدادهم، وسيهبط بنو الملك من الأقاليم الغربية ليدمروا بسيوفهم ما تبقى منهم فى أرض الميعاد، سيحيطهم الخوف من كل صوب، وسيغدون هم وزوجاتهم وأبناؤهم وقادتهم وخيامهم فى صحراء أجدادهم تحت سلطة ملك الإغريق، وبالسيف سيقودهم إلى الأسر والموت والبلاء"[2].

ومن الملاحظ أن الكاتب عمد هنا إلى استخدام صورة مجازية من المزامير فى وصف ظهور الإمبراطور الأخير، للتأكيد على عنصر المفاجأة لهذا الظهور، فى الوقت الذى يأنس

بمزجها بسلسلة من الرؤى المستوحاة من التوراة والإنجيل لإقناع قرائه بنبوءته ولإضفاء قدر من المصداقية الدينية على أمور غيبية لم تتحقق على أرض الواقع.

لمزيد من التفاصيل انظر، صلاح محجوب، "قصة إسماعيل فى العهد القديم واستيعابها فى الأدب السريانى المسيحى: رؤية وصفية"، بحث منشور فى كتاب الآخر فى الفكر اليهودى، جـ3: الآخر من المنظور الدينى والفلسفى، القاهرة، 2006م، ص91-109.

وانظر الدراسة المتخصصة التى وضعها رينينك حول هذه الزاوية تحديدا،

Reinik , G.J., " Ismael , der Wildesel in der Wüste zur Typologie der Apokalypse des Pseudo-Methodios" , *Byzatinische Zeitschrift* 75(1982) , pp.337-344.

1 يحدد الكاتب فترة السيادة الإسلامية بعشرة أسابيع من السنين، أى سبعين سنة، ربما تبدأ كما يقترح رينينك بعام 622م، وبالتالى فإن "نهاية هذا الأسبوع"، وهو الأسبوع الأخير من العشرة أسابيع من السنين، يمكن تحديدها بعام 692م. انظر،

, p.150 n.2 Reinink, *Ps.-Methodius.*

2 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , pp.59-63; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p.89-90.

المسلمون فى أنفسهم قوة ويركنون إلى الطمأنينة وحياة الرفاهية دون أدنى توقع لهجوم بيزنطى فعال، ولا شك أيضا فى أن الكاتب عند استخدامه هذه الصورة كان واعيا ومدركا لدلالاتها الكريستولوجية، ومن ثمّ ربما أراد أن يوجه قرائه إلى إقامة نوع من المماثلة بين المسيح الذى استيقظ كما يستيقظ النائم مثل جبار يصرخ عاليا من الخمر، فضرب أعداءه وقهرهم وجعلهم عارا مدى الدهر[1]، وبين الإمبراطور الذى "اعتقد الرجال أنه ميت وعديم القيمة "، لكنه سينهض ليهزم المسلمين [2]، وليس من قبيل المصادفة أن يجعل الكاتب الظهور الفجائى للإمبراطور نتيجة مباشرة لتطاول المسلمين على المسيح بقولهم: "ليس للمسيحيين مخلص" [3]، إذ يبدو أنه أراد إضفاء صبغة دينية على الصراع البيزنطى الإسلامى والتأكيد على أن الفتح الإسلامى لم يستتبع قهرا وتبعية سياسية فقط، بل كرها وإنكارا للمسيحية، ومن ثمّ فإن عقده لهذه المماثلة بين المسيح ونهوض الإمبراطور الأخير هو نوع من الربط بين الدين والسياسة، أو بمعنى آخر التأكيد على أن الانتقام هنا لن يستتبع انتصارا سياسيا فقط، بل هو أيضا ثأرٌ للمسيح والمسيحية من المتطاولين عليهما، وعلى ذلك فإن مقولة " ليس للمسيح مخلص " التى ألصقت بالمسلمين، واقترانها بالظهور المباشر للإمبراطور تومئ – كما يشير رينينك – إلى محاولة الكاتب التأكيد على أن الإمبراطور المنتظر ليس مخلصا سياسيا فقط، بل هو أيضا مخلص دينى[4].

ويبدو أن الكاتب هنا أراد أن يشرك مع الإمبراطور الأخير فى مهمة الانتقام من المسلمين طرفا آخر أطلق عليه "بنو الملك من الأقاليم الغربية"[5]، ويعتقد رينينك أن المؤلف يقصد بهذا المسمى بنى الملك على الإطلاق، أى شعبه التابع، كمسمى مماثل ومقابل لذلك الذى استخدمه مرارا للإشارة إلى المسلمين " بنو إسماعيل" [6]، ورغم اتفاق الباحث مع هذا الرأى إلا أنه يختلف معه فى المدلول أو الشعب الذى عناه المؤلف به، إذ

---

1 المزامير، 78: 65.

2 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.62 ;Idem , *Ps.-Methodius*,153.

3 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.60.

4 Reinink, *Ps.-Methodius*,153.

5 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.63.

6 Reinink , *Ps.-Methodius* , p.151n.8.

يبدو أنه لم يقصد به البيزنطيين –كما يذهب رينينك[1]– بل ربما قصد به شعوب الغرب الإمبراطورى نفسه، والتى أضحت فى ذلك الوقت جرمانية، وربما كان هذا الرأى لا يتفق والأمر الواقع بحكم أن الجرمان لم يرتبطوا بالإمبراطور البيزنطى بصلات عرقية أو حضارية، غير أن الكاتب هنا ربما لم يقصد هذه الصلات بعينها، بقدر اهتمامه بصلة التبعية –حتى وإن كانت اسمية– التى ربطت الشطر الغربى الجرمانى بالإمبراطورية الشرقية منذ غزو أودواكر لروما عام 476م، خاصة وأن المؤلف كما ذكرنا قبلا كان يعبر عن المفهوم السياسى البيزنطى حول نظرية العالمية الرومانية، وربما يدعم هذا الرأى أن عددا من النبوءات البيزنطية والغربية التالية كنبوءة الصقلى المجهول فى أوائل القرن التاسع [2] ونبوءات القديس أندروس سالوس فى القرن العاشر [3]، والتى تأثرت بنبوءة ميثوديوس

---

1 Reinink , *Ps.-Methodius* , p.151n.8.

2 فى عام 820م تقريبا؛ استخدم متنبئ صقلى نبؤه ميثوديوس المجهول، ولكنه قدمها بلمسات جديدة، فالإمبراطور الأخير هنا سيظهر فى سيراقوزة Syracuse، وسيرسل سفاراته إلى "المناطق الداخلية من روما ويروض الشعوب ذات الشعر الأشقر، ومعا سيطاردون "أبناء إسماعيل "، وفى روما سيعثر الإمبراطور على كنز مدفون يكفى لإعداد جيوشه، ثم يسير برا إلى القسطنطينية، وعندئذ سيظهر المسيخ الدجال، وأحد المظاهر الهامة لهذه النبوءة هى أنها نسبت إلى الشعوب الجرمانية دورا فى أحداثها.

Mango , *Byzantium* , 207.

3 فى سيرة القديس أندروس سالوس، أشير إلى الشعوب الجرمانية (شعوب الشعر الأشقر) وإن لم يوضح دورها فى القضاء على المسلمين، ففى الحوار الذى دار بين القديس أندروس وتلميذه ابيفانيوس Epiphanius، سأل فيه الأخير "كيف سينتهى العالم ؟ وما هى علامات النهاية ؟ وماذا سيحدث لهذه المدينة، أورشليم الجديدة، ولكنائسها المقدسة وصلبانها وأيقوناتها وكتبها وآثار قديسيها؟ "، أجاب الرجل المقدس "بالنسبة لمدينتنا، عليك أن تعلم أنه حتى نهاية الزمان لن تخشى أى عدو، لن يحتلها أحد، فقد عهد بها إلى العذراء ولن ينتزعها أحد من يديها، شعوب كثيرة ستهاجم أسوارها، ولكنها لن تحقق شيئا سوى كسر قرونها والرحيل بالعار، بينما نحصل على ثروات عظيمة منهم، وستسمع الآن عن "بدايات المحن" ونهاية العالم، ففى الأيام الأخيرة سينهض المسيح إمبراطورا من الفقر وسيسير على طريق الصلاح، سيضع نهاية لكل الحروب، يثرى الفقراء، وستبدو تلك الأيام كأيام نوح Noah، فالرجال سيكونون أثرياء، يعيشون فى سلام، يأكلون ويشربون، يتزوجون ويتناسلون. بعدئذ سيدير الإمبراطور وجهه نحو الشرق وسيذل أبناء هاجر the sons of Hagar، لأن المسيح سيكون غاضبا للغاية من كفرهم وتعريضهم بمقدساته، الإمبراطور سيبيدهم ويشوى أطفالهم فى النار، وسيستعيد الليريا للإمبراطورية الرومانية، وستحضر مصر جزيتها ثانية، وسيضع يده اليمنى على البحر ويخضع شعوب الشعر الأشقر ويذل كل أعدائه، وسيستمر عهده 32 عاما، وفى هذه الأيام سيظهر كل الذهب المخفى بإرادة المسيح وسيوزعه

المجهول، كرست دورا بارزا للجرمان، وإن أطلقت عليهما مسمى آخر هو "شعوب الشعر الأشقر"، وإذا كان الكاتب يقصد الجرمان فإن ذلك يعكس أمله فى تعاونهم مع الإمبراطور لضمان نجاح مهمته، أو ربما مثلت محاولة منه أو من سادته لمغازلة شعوب الغرب الجرمانية فى وقت باتت الإمبراطورية عاجزة عن التصدى للخطر الإسلامى وحدها.

كذلك؛ تتجلى فى هذه الفقرة نبرة الانتقام التى صبغت القسم الأخير من النبوءة، فقد أطلق الكاتب العنان لمشاعر الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام إلى حد جعله يظهر ما يعتمل فى نفسه بقوة إلى حد الاندفاع فى إسباغ صفة العنف والقسوة بل والتطرف للأسلوب الذى سيتم به هذا الانتقام، وهو الأمر الذى عبر عنه صراحة عندما يصفه بقوله:- " سيفوق البلاء الذى يفرض عليهم من ملك الإغريق سبعة أضعاف ذلك البلاء الذى أنزلوه بالأرض، سيكونون فى محنة عظيمة، سيتضورون عطشا وجوعا، سيقعون ونساؤهم وأطفالهم فى نير العبودية ليخدموا أولئك الذين خدموهم من قبل، وستكون عبوديتهم أشد قسوة وصعوبة مائة مرة "[1].

وإذا كان ظهور الإمبراطور الأخير مقترنا بالقضاء على عالم الإسلام، فقد كان الكاتب أيضا حريصا على أن يجعل ظهوره قرين السلام الذى سيحل على العالم بأسره، وكأنه أراد هنا أن يقيم علاقة تناقضيه بين الإسلام والسلام، وهو ما عبر عنه بوضوح بقوله:- "ستكون الأرض التى خربوها – يقصد المسلمين - عندئذٍ فى سلام، سيعود كل رجل إلى أرضه وإرث آبائه، إلى قبادوقيا وأرمينيا، وقليقية Cilicia، وأيزوريا Isauria، وإفريقيا، واليونان، وصقلية. كل شخص غادر الأسر سيرجع إلى الأشياء التى كانت له ولأجداده،

الإمبراطور بين رعيته، سيغدو نبلاؤه كالأباطرة فى ثرائهم، والفقراء كالنبلاء، وبحماس شديد سيضطهد اليهود، ولن يوجد إسماعيليا (عربيا) واحدا فى المدينة، لن يلعب أحد القيثارة أو ينشد الأغانى أو يقترف أى عمل آخر مخز، لأنه سيبغض كل أولئك الرجال وسيجتثهم من مدينة المسيح".

The Life of St. Andrew the Fool , ed.& trans. L. Rydén , Uppsala , 1995 , pp. 258-285 ; Rydén , L., " The Andreas Salos Apocalypse: Greek Text , Translation and Commentary" , *Dumbarton Oaks Papers* 28(1974) , pp.199-261.

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.64 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p.90.

وسيتناسل الناس كالجراد على الأرض المقفرة. ستخرب مصر، وتحرق شبه الجزيرة العربية Arabia بالنار، وستحرق أرض العبرانيين Hebron، وستهدأ أقاليم البحر. سينزل ملك الإغريق جل سخطه وانتقامه على أولئك الذين أنكروا السيد المسيح يسوع، عندئذٍ سيحل سلام لم تشهده الأرض قبلا أو بعدا، فذلك هو السلام الأخير عند نهاية الزمان"[1].

وإذا كان ظهور الإمبراطور الأخير قرين السلام بما يحتويه من خير ونماء وتناسل، فقد عمد الكاتب إلى استثناء فئة بعينها من هذا السلام، هم أولئك الذين أنكروا المسيح، أو بمعنى آخر أولئك الذين ارتدوا عن المسيحية ودخلوا الإسلام، ودون تكرار ما ذكر قبلا عن دافعية الكاتب لذلك، فمن الواضح أن مبرر الكاتب كان جليا فى تخصيصه لشبه الجزيرة العربية بالدمار على أساس أنها منبع الإسلام، أما تضمينه مصر فلا شك فى أنه يعكس غضب وسخط الكاتب من الموقف الشديد الإيجابية لمسيحيى مصر تجاه الإسلام وقت الفتح.

وبعد القضاء على الإسلام يواصل الكاتب نبوءته بالحديث عن المصير الذى سيؤول إليه العالم فى أحداث نهاية الزمان، مستوحيا بعضها من الكتاب المقدس، ومضيفا دورا للإمبراطور الأخير فيها، فيعيد إلى الأذهان حديثه السابق عن القبائل الشمالية والإسكندر الأكبر، فيقول:- "عندئذٍ ستنفتح "أبواب الشمال" وستنطلق قوة تلك الشعوب التى كبحها وأغلق عليها الإسكندر من قبل، سترتاع الأرض كافة لمرآهم، سيرتعد أعتى الرجال ويفرون للاختباء بالجبال والكهوف، سيموت الكثيرون من شدة الخوف، ولن يجدوا من يوارى أجسادهم. ستأكل القبائل القادمة من الشمال لحم البشر وتشرب دماء الوحوش كما تشرب الماء..... سينتزعون الأجنة من أرحام أمهاتهم ليأكلونها، سيعيثون فى الأرض فسادا ولن يجرؤ أحد على أن يقف فى وجوههم، وبعد سبع سنوات، عندما يغزون بالفعل مدينة Joppa، سيرسل المسيح أميرا من جنوده فيصرعهم على الفور"[2].

---

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , pp.64-65 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , pp.90-91.

2 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.69 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p.92-93.

وعن يأجوج ومأجوج فى العهدين القديم والجديد، انظر،

وأخيرا يصل الكاتب إلى نهاية أحداث نبوءته، جاعلا مسرحها فى فلسطين، بقوله:- "بعد ذلك سيذهب ملك الرومان إلى أورشليم ليعيش بها سبع سنوات ونصف"، وهنا يتوقف الكاتب بفقرة اعتراضيه يتحدث فيها عن أحداث تالية ستحدث بعد ثلاث سنوات من رحيل الإمبراطور، فيقول:- "وعندما تكتمل عشر سنوات ونصف سيظهر ابن الهلاك، سيولد فى كورزين Chorazain، وينشأ فى بيت صيدا Bethsaida، ويحكم فى كفر ناحوم Capharnaum. ستسر كورزين لأنه ولد بها، وكفر ناحوم لأنه حكم بها. ولذلك يقول المسيح فى الإنجيل: **الويل لك يا كورزين، الويل لك يا بيت صيدا...، وأنت يا كفر ناحوم، هل ارتفعت حتى السماء؟ إنك إلى قعر الهاوية ستهبطين** "[1]، ويستأنف الكاتب حديثه عن الإمبراطور الأخير بقوله:- "سيصعد ملك الإغريق والرومان جبل Golgotha الذى عليه خشبة الصليب المقدس، فى المكان الذى شهد فيه المسيح الموت من أجل خلاصنا، سيرفع الملك التاج من فوق رأسه ويضعه على قمة الصليب، ويبسط يديه إلى السماء مسلما مملكة المسيحيين للإله الأب، عندئذ سيرتفع الصليب بالتاج إلى السماء، ذلك أن الصليب سيظهر أمام المسيح عند مجيئه لإقناع ضعاف الإيمان" [2]، وعند هذه النقطة يعود الكاتب ليعيد إلى الأذهان روايته عن الأصل الحبشى لإمبراطور بيزنطة، مؤكدا على أن نبوءة داود الخاصة ببسط الحبشة يديها للرب قد تحققت على أيدى الإمبراطور الأخير الحبشى الأصل لكونه من نسل كوسيث الحبشية، عندما بسط يديه إلى الرب، ثم يختتم نبوءته بقوله:- "وعندما يرتفع الصليب لأعلى إلى السماء، ستصعد بعده مباشرة روح ملك الإغريق والرومان، وعندئذٍ ستدمر كل إمارة وسلطة لأن ابن الهلاك سيظهر"[3].

ومن ناحية أخرى؛ يبدو أن الكاتب استوحى صورة تخلى الإمبراطور الأخير عن تاجه، وبسط يديه إلى السماء مسلما مملكة المسيحيين للإله الأب، من صورة رمزية مماثلة فى العهد الجديد حدث بها بولس فى رسالته الأولى لمؤمنى كورنثوس، **عندما يسلم المسيح**

حزقيال، 1:38-23، 39: 1-17؛ يوحنا، 19: 17-18؛ متى، 20: 7-10.

1 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.69-70 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p.93.

لوقا، 10: 13-15.

2 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.71-73 ; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p. 94.

3 Reinink , *Die syrische Apokalypse* , p.73; Sackur, *Sibyllinische Texte* , p.94.

الملك لله الأب بعد أن يكون قد أباد كل رئاسة وكل سلطة وكل قوة [1]، ولما كان تسليم المسيح للملك مقترنا بقضائه على المسيخ الدجال، فلا شك أن الكاتب أراد هنا الإيحاء للقارئ بمماثلة بين المسيح وقضائه على المسيخ الدجال وتسليمه الملك، وبين الإمبراطور الأخير وقضائه على الإسلام وتسليمه مملكة المسيحيين، وبما إن تلك لم تكن المماثلة الأولى بين المسيح والإمبراطور من ناحية، والإسلام والمسيخ الدجال من ناحية أخرى، فلا شك فى أنها تؤكد ما ذهبنا إليه قبلا من إصرار الكاتب على إضفاء الصبغة الدينية على مهمة الإمبراطور الأخير من ناحية، والإساءة إلى الإسلام من ناحية أخرى.

هكذا عبرت نبوءة ميثوديوس المجهول عن كراهية أحد رجال الدين السريان للإسلام ورفضه للسيادة الإسلامية عقب الفتح مباشرة، وأمله فى أن تنهض الإمبراطورية البيزنطية ثانية للقضاء على تلك القوة الفتية الجديدة، وعند هذه النقطة يثار أمر جدير بالملاحظة، هو أن نبوءة ميثوديوس المجهول كانت تشكل جزءا من إطار عام عكسته العقلية السريانية المعادية للفتح العربى، وانعكس فى عدد من نصوص القرن السابع الميلادى، وهى نصوص مزجت بين الأحداث المعاصرة والنبوءة، أو بالأحرى كيفت الوضع الراهن للعصر فى قالب أبوكاليبسى، وهنا نرجع بالذاكرة إلى رواية ميثوديوس عن تعاقب الممالك والوحش الرابع الذى يسود العالم، التى اقتبسها وتأثر فيها برؤيا دانيال، فالواقع أن هذا الاستخدام لم يكن استثناء على ميثوديوس، بل يمكن القول بأنه غدا عقيدة تقليدية فى العقلية السريانية المعادية للإسلام، ففى عام 634م وبعد الفتح العربى مباشرة، راح بطريرك بيت المقدس صوفرونيوس Sophronios يعبر عن رأيه فى أن الاحتلال العربى لبيت لحم عقابا إلهيا على خطيئة يمكن التكفير عنها، ولذلك راح يقول:" علينا فقط التوبة، عندئذ سنكل سيف بنى إسماعيل، وسنكسر قوس أبناء هاجر، ونرى بيت لحم ثانية"[2]. وفى خطاب مؤرخ بالفترة 634-640م تحدث ماكسيموس المعترف عن "شعب الصحراء البربرى " الذى ساد أرضا ليست له، وألمح إلى أن ظهور المسيخ الدجال بات أمرا وشيكا[3]، وفى الوقت ذاته راح مصدر سريانى ثالث يصوغ

---

1 الرسالة الأولى لمؤمنى كورنثوس، 15: 24.

2 Brock , *Syriac Views* , p.9 ; Constantelos , *Moslem Conquests* , 328-329.

3 Brock , *Syriac Views* , 9.

أحداث الفتح العربى فى قالب دانيالى، وظلت روما تمثل الوحش الرابع، وفى نهاية القرن راح سيبوس الأرمينى يقدم تأويلا آخر لرؤيا دانيال، عندما أحل بنى إسماعيل محل روما كوحش رابع[1].

وفى دراسة وضعها سباستيان بروك حول المصطلحات المستخدمة فى مصادر القرن السابع السريانية، توصل إلى حقيقة مؤداها، أن كتابها كانوا على وعى بطبيعة الوضع الراهن بعد التغيرات التى أحدثها الفتح العربى فى موازين القوى بالمنطقة، وعبر عن ذلك بقوله: " لقد أدركوا أن الحكم الفارسى والبيزنطى بات إلى زوال، وأن العرب لم يأتوا إلى أرضهم إلا لتأسيس إمبراطورية جديدة، فوصفوا محمد والخلفاء دوما بلفظ (الملوك) ونظروا إلى مملكة العرب كوريثة مباشرة لمملكتى بيزنطة وفارس" [2]، ويبدو أن وراء هذه المصطلحات يكمن تأثير دانيالى بصورته عن إمبراطوريات العالم الأربع المتعاقبة، إذ يبدو أن استخدام لقب "الملوك" و"المملكة" يعكس الاعتقاد فى أن العرب المسلمين يمثلون الوحش "المملكة" الرابع الذى حدث عنه دانيال فى رؤياه، غير أن هناك نقطة اختلاف رئيسية بين هذه الرؤية وتلك التى عبر عنها ميثوديوس فى نبوءته، حقيقة أن جميعها ربما اتفقت على اعتبار العرب وحش دانيال الرابع، إلا أن ميثوديوس اختلف عنها فى رؤيته الخاصة باستمرار بقاء الإمبراطورية البيزنطية ونهوض إمبراطورها الأخير للقضاء على العرب، وهنا تثار إشكالية اعتقد فيها عدد من الباحثين الغربيين، ألا وهى اعتقادهم فى أن ميثوديوس قصد بالوحش الرابع بيزنطة وليس العرب، وهو الرأى الذى ينبغى إعادة مناقشته فى ظل اعتبارات بعينها، أولها أن رؤية ميثوديوس للعرب كوحش دانيال الرابع لا يتناقض مع بقاء بيزنطة التى باتت فى حالة من العجز ولم تعد بقوة الوحش الرابع الذى تحدثت عنه الرؤيا، كما أن ظهور الوحش الرابع فى رؤيا دانيال لم يستتبع قضاء تاما على الوحوش الثلاثة الأخرى، حيث وهبت البقاء على قيد الحياة إلى حين، أما الاعتبار الثانى فيكمن كما ذكرنا من قبل فى حرص الكاتب على إضفاء نوع من المصداقية على نبوءته لإقناع معاصريه بها، ولاشك فى أنه أدرك تماما أن جعله العرب وحشا رابعا، وهو الأمر

1 Brock , *Syriac Views* , p.9-10.

2 Brock , *Syriac Views* , p.14.

الذى تم بالفعل ورآه معاصروه رؤية العين، سيكون أكثر فعالية وتأثيرا عليهم من جعله بيزنطة التى غدا الواقع الفعلى لا يبشر مطلقا بتحولها إلى وحش دانيال الرابع، بل إن قصده العرب هنا من شأنه أن يوحى لمعاصريه بأنه طالما تحقق الجزء الأول من نبوءته، فلا شك فى أن تحققها كلها أمرا مقدرا بات وشيكا، أما الاعتبار الثالث فيتمثل فى أن مملكة دانيال الرابعة كما وردت فى رؤياه لا تتفق إطلاقا مع ما أسموه مملكة الإمبراطور الأخير، ففى رؤيا دانيال يتعاقب على حكم المملكة الرابعة عددا من الملوك بعد ظهورها وقضائها على قوة الممالك الثلاثة الأخرى، وهو ما لا يصدق على ملك بيزنطة، فظهور ملك واحد فقط يقضى على العرب والإسلام ثم يذهب إلى بيت المقدس ويتنازل عن عرشه، يجعل مملكة العرب أكثر تشابها وقربا إلى مملكة دانيال الرابعة من مملكة إمبراطور بيزنطة الأخير، وأخيرا يمكن القول بأن ميثوديوس كان يعبر فى نبوءته عن الاتجاه الذى ساد فى بعض نصوص أواخر القرن السابع السريانية، والذى عكسه سيبوس الأرمينى بوضوح، والمتمثل فى القناعة بزوال القوة البيزنطية وحلول القوة العربية كمملكة دانيال الرابعة.

* * *